الفصل الثالث

الابداعية

من الواضح أن الابداعية عنصر هام في الفروق الفردية . فلو نظرنا الى الوراء في التاريخ لاستطعنا أن نرى بأن العالم الذي نعيش فيه تغير تغيراً راديكالياً على يد بضعة أشخاص قاموا بقفزات ابداعية الى الأمام في تفكيرهم . ان غاليلو وداروين وانشتاين قدموا اسهامات ضخمة لفهمنا للعالم الذي نعيش فيه . كما أن المخترعات توضح هذه النقطة أيضاً ، فالآلات الحاسبة والهاتف والمحرك البخاري وآلاف الأشياء الأخرى التي نستمتع بها اليوم ونعدها عادية جداً تم ادراكها وتطويرها من قبل الأشخاص الذين نود أن نسميهم مبدعين . ففي الآداب والفنون ان الكتب والقصائد واللوحات والمنحوتات التي تغني عالمنا الحاضر تم خلقها من قبل أفراد ذوي ابداعية مرتفعة على مر العصور .

منذ عام ١٩٥٠ كثف علماء النفس أبحاثهم على الابداعية وكانت النتيجة هي الحصول على قدر ضخم من المواد التي تعكس في الزمن الحاضر الأساليب المختلفة لموضوع الابداعية وتعاريف مختلفة لهذا المفهوم . ولذلك لكي نبني هذا الموضوع جيداً علينا أن نتفحص هذه التعاريف باختصار .

تعاريف الابداعية : هو كل شخص تنتج شيء ذات قيمة نفعية لذاته أو للمجتمع

١) ان بعض تعاريف الابداعية تشدد على أنه يجب أن يكون هناك انتاج مفيد اذا كان لشخص ما أو لفعل ما بأن يسمى ابداعياً ، بينما ترى بعض التعاريف الأخرى الابداعية كقيمة في حد ذاتها بدون أية حاجة للقيمة الاجتماعية . لذلك فان أحلاماً من خيال الطفل تعد

ابداعية . ان الأمثلة المعطاة من قبل عن الأفكار والنظريات العلمية كنظرية التطور ، أو انتاجات كآلة حساب الجيب أو قصة كلاسيكية سوف تقع تحت تعريف الناتج المفيد اجتماعياً . ان المشكلة في هذا التعريف هي مستوى البراعة أو الانجاز . فما مدى الفائدة والمدة التي يجب أن تصرف في الانتاج بالنسبة للمنتج كي يعد ابداعياً ؟ بشكل متطرف قد يكون لزاماً علينا أن نقول ان مجالات النشاط جميعها ابداعية وبالتالي فان جميع المكتشفين والرسامين والشعراء بدءاً من شكسبير حتى فنان ومصمم جدران بيوت الخلاء يجب أن يصنفوا كمبدعين . ان الدراسات التي هي من هذا النوع تأخذ مجموعات من المختصين المبدعين مثل مهندسي البناء والكتاب وتقارنهم بالناس بشكل عام لكي تكون صورة للشخص المبدع ، ولكن صورة مختلفة أخرى تظهر لو قارنا كل مهندس بناء مبدع بمهندس بناء أقل ابداعية . على سبيل المثال أن مهندسي البناء كمجموعة يحرزون أكثر بكثير من الناس العاديين في اختبار الذكاء ولكن المهندسين المبدعين لا يحرزون درجات أرفع من بقية المهندسين الآخرين اذا أخذوا ككل .

ان مجموعة أخرى من التعاريف تضع الابداعية بشكل أوسع ضمن التقليد السوسيومتري وان هذا الأسلوب يوحي بأن الابداعية (أو قل التفكير المتباعد كما يسمى عادة في هذا المجال) قدرة يمكن قياسها بطرق مشابهة لقياس الذكاء ، لأن بعض الناس أكثر أصالة من غيرهم ولأن هذا النوع من التفكير مختلف عن نوع التفكير المتقارب في اختبارات الذكاء . ان أسلوباً كهذا يركز على القدرة في الاختبارات أكثر من تركيزه على التحصيل في العالم الواقعي كما أن النقطة الهامة حول التعاريف والأساليب المختلفة لدراسة الابداعية هي ان مكتشفات البحث قد تبدو غامضة أو متناقضة اذا تجاهلنا التعريف المحدد والمستعمل للابداعية أو تجاهلنا الافتراض بأن هذا التعريف هو الذي يكون طبيعة الابداع .

ان الاسلوب الثالث يفحص الابداعية ليس ضمن انتاجها أو قياسها بل كوقف أو ميل أو دافعية وأن فرنون يدرس الابداعية بهذا الأسلوب . انه يقول : ان ابداعية الفنانين والعلماء الرائعين ربما تكون مسألة متعلقة بالشخصية أو الدافعية أكثر من كونها مجرد شكل محدد من التفكير (فرنون ١٩٥٩ : ٦٥) واننا نوافق على ذلك . ولذلك دعنا نعود الى دراسات الأفراد المبدعين لنرى ما تكشفه لنا هذه الدراسات .

دراسات الأشخاص المبدعين :

ان احدى الطرق لدراسة الابداعية هي دراسة أشخاص مبدعين مشهورين وأن أفضل

عمل من هذا النوع قد أجري في معهد تقويم وبحث الشخصية في كاليفورنيا (انظر فرنون ، ١٩٧٣) ففي بداية العمل سئل عدد من أساتذة الهندسة المعمارية ليضعوا قائمة بأربعين من أكثر مهندسي العمارة ابداعية في الولايات المتحدة . بعد ذلك قورنت الأسماء الموجودة في هذه القوائم بأسماء مهندسين معماريين من العصر نفسه والخلفية الثقافية نفسها لم يتم ذكرهم كمبدعين . بهذه الطريقة تم تشكيل مجموعتين تجريبية وضابطة ودعي الجميع لقضاء عطلة أسبوعية في المعهد يشتركون في اختبارات ومقابلات ويراقبون في مواقف مختلفة . لقد كانوا جميعاً من الذكور وبذلك كان بالامكان المقارنة بين المجموعات المبدعة وغير المبدعة وقد ظهرت فروق كبيرة بينها .

لقد وجد بأن لدى المعماريين المبدعين تصورات ذاتية مختلفة عن أولئك المعماريين في العينة الضابطة . لقد عدوا أنفسهم كمبدعين ومبتكرين وجديين ومستقلين وفرديين ومصممين . أما أعضاء المجموعة الضابطة فقد استعملوا غالباً كلمات كمخلصين وواثقين وثابتين وصابرين ومسؤولين . لقد كان الأشخاص المبدعون أيضاً أقرب الى النموذج الانثوي في ثقافتنا لأنهم أكثر انفتاحاً في مشاعرهم وعواطفهم ويظهرون اهتماماً في مهمات انثوية مثل تنظيف البيت . كما أن دراسات مشابهة قد أجريت أيضاً في معهد تقويم وبحث الشخصية على كتاب مبدعين ورياضيين ومهندسين وغيرهم ، وقد أعطت هذه الدراسات نتائج متشابهة . كما أن دراسات أخرى قد أضافت أوصافاً مثل : الطاقة العالية ، الميل للتعقيد والاهتمامات الواسعة وبينت أن صفات كهذه موجودة غالباً مع الفرد منذ الطفولة . بالاضافة لذلك ان القدرة الابداعية المبكرة هي مؤشر لابداعية لاحقة . فمن المعروف جيداً في علم النفس أن واحداً من أفضل المقاييس للسلوك المستقبلي هو السلوك الماضي وأن موضوع الابداعية لا يمثل استثناء في ذلك . لقد أشير الى أن الراشدين المبدعين قد كتبوا أو أبدعوا أكثر بكثير من الأشياء التي قام بها غير المبدعين عندما كانوا أطفالاً ومراهقين ومن جملة هذه الأشياء قصائد ومقطوعات موسيقية وابتكارات الخ .

هناك العديد من النقاط الهامة الخبأة في قائمة الصفات الموضوعة من قبل المعماريين المبدعين وغيرهم . أحدها هي انهم عدوا أنفسهم كمبدعين . لقد بين البحث ان الأشخاص المبدعين الآخرين عدوا أنفسهم مبدعين . قد يبدو ذلك بسيطاً وواضحاً ولكن واحداً من أفضل

الطرق لقياس ابداعية الناس هي أن تسألهم تماماً فيما اذا كانوا مبدعين وقد ترغب بأن تتذكر هذه النقطة عندما نصل وبعد عدة صفحات الى قسم قياس الابداعية .

ان النقطة الثانية تتعلق بالطبيعة الاستقلالية والفردية للفرد المبدع وهذه تعيدنا الى تعريفنا للابداعية المتركز حول الانتاج . انك قد تتذكر بأن لدينا (غاليلو) و(دارون) كأمثلة واضحة عن الناس المبدعين مع ذلك كان عليهم ان يلقوا جانباً الحكمة التقليدية في زمانهم ليتخذوا طريقاً مستقلاً في وجه العداء لأفكارهم الجديدة . كما يبدو أن الابداعية تتطلب شخصية معينة (فالشخص) الذي تتوافر له الثقة والاستقلال والتصميم ليعمل وفق ما يريد عليه أن يخرج خارج الحدود الطبيعية للتفكير .

الكد والتعب والجهد

أخيراً ان الكدح الكبير هو عنصر في العملية الابداعية ولكن غالباً ما أهمل . فلقد قيل أن ١٠٪ من الابداعية أو العبقرية الهام و ٩٠٪ منها عرق أو جهد . ان هذه النسب تبدو على أنها مدعمة بدراسة للناس المبدعين ولعملية الابداع . حيث أننا نجد في دراسة المعماريين وفي دراسات مشابهة أخرى بأن الأفراد المبدعين حقاً هم عادة مقتصرون على اختصاصهم أو مهنتهم وأنهم يعملون فيها بشكل أطول من غيرهم وتقريباً الى درجة الهوس . ان ضوء الالهام ، اذا أتى ، يتبع عادة عدة أسابيع أو أشهر أو سنوات من الجد كما سنرى في القسم الثاني حول عملية الخلق أو الابداع .

☆ مراحل (عملية الابداع :)

ان المسألة الأخرى التي أثارت قلق علماء النفس هي مسألة كيف تولد الفكرة المبدعة وهل هناك مراحل مميزة في الابداع ؟ وما الذي يحدث قبل أن تولد الفكرة المبدعة ؟ . يبدو الجواب بأن هناك مراحل معينة يشير الأشخاص المبدعون الى أنهم يمرون بها وأن هذه المراحل متشابهة جداً في الأنشطة العلمية والفنية . وان تفاصيل تامة يمكن ايجادها في غيزيلي (١٩٥٢) أو في ملخص مفيد كتبه هاوارت وغليهام (١٩٨١) اللذان حللا العملية ضمن عدة خطوات رئيسة هي :

١ — ان الناس يقولون غالباً بأن عمليتهم الفكرية الابداعية تتصف بحوار داخلي . فلقد قال (فرويد) وآخرون بأن هذا الحوار يتم بين الشعور واللاشعور أما آخرون فقد أعطوا

أمثلة عن حوار تصوري بين أنفسهم وشخص آخر . فأي كائن من كان ومهما كان هذا الآخر فان وجوده يساعد دائماً في عملية الابداع .

٢ ـ ان العديد من الاكتشافات قد حدثت عندما كان صاحبها في حالة شبه واعية وفي حالة مماثلة للحلم كتلك الحالات التي نمر بها بين اليقظة والنوم أو عندما نرى أنفسنا نعمل شيئاً ما بدون أن نشعر بأننا جزء منه ، ومع ذلك فان المحاولة عن قصد لزيادة الابداعية بوساطة اعطاء الأدوية أو خلق حالات من شبه الشعور لا تجدي نفعاً .

٣ ـ في مرحلة مبكرة وعندما تتكون الأفكار ، يشير المفكرون أحياناً الى أنهم يتجنبون استعمال كلمات تقليدية أو منطقاً تقليدياً . وبدلاً من ذلك انهم يتعاملون بتصورات أو تجريدات غامضة ولكنهم فقط يصفون أفكارهم بكلمات فيما بعد .

٤ ـ أخيراً هناك الكثير من التركيز والالتزام والطاقة المكرسة للعملية الابداعية التي ذكرت من قبل وبشكل خاص لوضع الأعمال الأولية قبل أن تولد الأفكار الابداعية . ان العديد من المفكرين يذكرون بأنهم قد كرسوا أنفسهم لشهور وسنوات لاختبار أنشطتهم المختارة قبل أن يحرزوا أي تقدم ولذلك يبدو بأن ذلك يعطي اللاشعور المادة التي يعمل عليها قبل أن يكون بالامكان اعادة تنظيمها أو اعادة دمجها ضمن رؤية جديدة كفكرة أو نتاج وغالباً قد يتم ذلك عندما لا يكون المفكرون مكرسين أنفسهم للموضوع ..

قياس الابداعية : من خلال الاختبارات والتفكير المتباعد

هناك تنوع كبير من التقنيات المختلفة لقياس الابداعية وهذه التقنيات تعكس العديد من الأساليب والتعاريف المذكورة في بداية هذا القسم . ان مراجعة قام بها هوسيفارد (١٩٨٠) تدرس عشرة أساليب مختلفة من روائز الاهتمام والشخصية ومن الأحكام على الانتاجات ودراسة الشهرة . لكن أكثر الأساليب وأوسعها استعمالاً والذي سنركز عليه هنا هو أن نصف الابداعية بعبارة التفكير المتباعد وتقيسها بالاختبارات . ان اختبارات الذكاء التقليدية تتطلب عادة جواباً واحداً فقط ، هو صح أو خطأ . بكلمات أخرى أن الاختبار يتطلب بأن يتركز (ينصب) تفكير المفحوص على حل واحد . ففي الخمسينيات والستينيات كانت هناك في الولايات المتحدة انتقادات كثيرة لاختبارات كهذه وللنظام التربوي الذي اعتقد بأنه يشجع الفكر التقليدي والاتفاق مع سلطة المعلمين والكتب المدرسية . ان الشيء الذي كان مطلوباً

للمساعدة في حل مشكلات العالم المعاصر مثل التلوث ، المجاعة ، وندرة الموارد الطبيعية ، لم يكن التفكير التحليلي أو المركز بل التفكير المتباعد (المبدع) وهذا يؤكد على حل المشكلات والذي يتجه نحو الكثير من الأجوبة الممكنة ونحو أفكار جديدة أيضاً .

ان جيلفورد وزملاءه قد طوروا اختبارات في الخمسينات لقياس التفكير المتباعد وأن العديد من الاختبارات الأخرى قد طورت منذ ذلك الحين وأن هذه الاختبارات جميعها تسأل المفحوص بأن يفكر بكثير من الأجوبة عن سؤال واحد وليس بجواب واحد فقط . ان الأسئلة قد تكون كم استعمالاً تستطيع أن تفكر به لحجر من البلوك أو لملقط ورق؟ أو اذا توقفت الجاذبية فجأة ما هي نتائج ذلك ؟ ان الأجوبة يمكن تصحيحها (اعطاؤها درجات) بالنسبة للطلاقة ، التي هي عدد الأجوبة المعطاة ، وبالنسبة للمرونة ، التي هي عدد النقلات من نوع من الاستعمال الى نوع آخر . فالأجوبة عن سؤال ملقط الورق مثل استعماله لتنظيف أذنيك أو أظافرك أو لمسك أنفك وتنظيف مجاريه سوف تعطى درجات عالية الى حد ما بالنسبة للطلاقة لا بالنسبة للمرونة ، أما الجواب الذي يصل الى حد القول أن الملقط يستعمل لتنظيف أظافرك أو لصنع وصلة كهربائية أو رافعة لانموذج طائرة صغير أو لتنظيف غليون التدخين أو لصنع قرط اذن بالنسبة لأحد الشباب فيجب أن يعطي درجة عالية أكبر بالنسبة للمرونة .

هناك افتراض يقول : ان التفكير المتباعد هو جوهر الحل المبدع للمشكلة وبأن درجة الفرد في اختبار التفكير المتباعد هي مقياس لتفكيره المبدع . ان الأساس التجريبي لهذه الافتراضات من العبث ايجاده أو الاعتقاد به وهذا يعود الى أن عملية الابداع تبدو على أنها تتطلب التفكير المتقارب والمتباعد معاً ، فالفرد المبدع قد يحتاج الى التوصل الى عدد من الاحتمالات الجديدة ولكنه قد يحتاج أيضاً الى أن يركز على الاحتمال الذي يكون أكثر ملاءمة وظهوراً (ثانياً) ان الترابطات بين درجات التفكير المتباعد في المقاييس الأخرى للابداعية كالتقديرات أو الانتاجات ليست ترابطات ثابتة فلقد وجد بعض الباحثين علاقات ايجابية نادراً ما كانت أكبر من ٠,٣ وأن العديد من الآخرين لم يجدوا أية علاقة . بكلمات أخرى ان الاختبارات ينقصها الصدق البنائي ، حيث أن الأدلة المستقلة قد بينت بأنها تقيس ما تدعي بأنها تقيسه (ثالثاً) انه لمن الأكثر خطورة ان الأدلة غير قطعية بأن التفكير المتباعد مرتبط بالحل المبدع للمشكلة في الحياة الواقعية . فالأدلة الموجودة تبين بأن العلاقة ليست علاقة واحد لواحد وتحتاج الى أدلة أكثر كفاية . ان مراجعة قام بها بارون وهارنكتون (١٩٨١) تقول

• ان بعض اختبارات التفكير المتباعد المستعملة في ظل بعض الشروط ومصححة ببعض المجموعات من المعايير تقيس القدرات المرتبطة بالانجاز المبدع وبالسلوك في بعض المجالات (بارون وهارنكتون ١٩٨١ ، ص ٤٤٧) وفي أفضل الأحوال يجب النظر الى التفكير المتباعد على أنه مرتبط بالابداعية لا كمقياس مباشر لها ، فهناك أساليب أفضل منه مثل البيان التفصيلي في الانجازات والأنشطة الابداعية (حيث يضع المفحوص اشارة على النشاطات أو الانجازات المناسبة) أو مثل سؤال المفحوص عن مدى ابداعيته .

أخيراً هناك مسألة فيما اذا كانت اختبارات التفكير المتباعد مختلفة عن اختبارات الذكاء أو فيما اذا كانا في الحقيقة يقيسان الشيء نفسه . ان هذه المسألة كانت موضوع الكثير من الدراسات وأن النتائج تبين بأن ترابط الذكاء بالتفكير المتباعد يختلف بشكل واسع جداً بدءاً من الصفر حتى ٠,٧ وطبقاً لطبيعة الاختبار ولتنوع العينة وأوضاع الاختبار نفسها . ان رقماً يقع نحو ٠,٢ هو ترابط متوسط وأن هذا الترابط يوحي بأن اختبارات التفكير المتباعد تقيس شيئاً ما مختلفاً عن الذكاء ، لكن هذا الشيء مرتبط بالذكاء ولكن كما ذكرنا سابقاً ان هذا لايثبت بأن الاختبارات تقيس الابداعية . علاوة على ذلك ان العديد من اختبارات التفكير المتباعد ترتبط فقط ببعضها بعضاً بالدرجة نفسها التي ترتبط بها مع الذكاء وقد عدت هذه النتيجة بأنها تلقي الشكوك على النتائج التي تقول أننا نقيس بثبات شيئاً مختلفاً عن الذكاء ، ولذلك ربما كان علينا أن نقول أن الاختبارات تقيس بعض الأشياء المختلفة عن الذكاء وبالتأكيد كما تبين دراسات الأشخاص المبدعين فان الابداعية في الحياة الواقعية تحتاج لذكاء مرتفع ولانتاج ابداعي معاً ولذلك ان معرفة فيما اذا كان التفكير المتباعد عاملاً مستقلاً عن الذكاء أو فيما اذا كنا قادرين الآن على قياسه بشكل مقبول بوساطة اختبارات التفكير المتباعد ، لا تزال مسألة مفتوحة جداً على مصراعيها للنقاش والبحث .